اشتهيته لخيف العاقبة حتى قال الشاعر
لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في   وصلي مشيت بلا شك على الماء
وروينا أن عيسى عليه السلام في سياحته مر برجل نائم ملتف في عباءة فقال
يا نائم قم فاذكر الله فقال ما تريد مني إني قد تركت الدنيا لأهلها
فقال له عيسى نم إذاً حبيبي ثم روينا عن موسى صلى الله عليه وسلم
أنه مر برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر
بعباءة فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله إليه يا موسى
أما علمت أني إذا نظرت إلى عبدي بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وأوحى
الله سبحانه إلى نبيه إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال
يا رب ومن هم قال الفقراء الصادقون فهذا كأنه تفسير لخبر موسى عليه السلام
في قوله أين أجدك قال عند المنكسرة قلوبهم وقد كان أحمد بن عطاء وهو من المتأخرين
يفضل حال الغني على الفقير بشبهة دخلت عليه وهو أن بعض الشيوخ سأله
عن الوصفين أيهما أفضل فقال الغني لأنه صفة الحق فقال له الشيخ فالحق غني
بالأعراض والأسباب فانقطع ولم ينطق بحرف ولما قال الشيخ لأن الحق تعالى غني
بوصفه والفقير أحق بهذا المعنى لأنه غني بوصفه بالابتلاء لا بالأسباب لأنه لا تعلق
عنهما فهو الأفضل وأما الغني فإنه مستغن بجمع الأسباب فهو مفضول ومن غلط
الخواص وكان موقعه في المعرفة فقال في كتابه شرف الفقر فالفقر صفة للحق يعني
بد الفقر موقفه في التأويل يعني أنه تعالى متخل من الأشياء منزه عنها ووجه
آخر من الغلط الذي دخل عليه من جهة المعنى الذي ذكره لأنه إن كان فضل الغني
على الفقير لأنه صفة الحق فينبغي أن يفضل المتكبر الجبار ومن أحب المدح والعز
والحمد لأن ذلك كله صفة الحق فلما أجمع أهل القبلة على ذم من كان ذلك وصفه كان من
وصف بالغنى في معناه لأن الغنى صفة بالغنى في وصفه لأن الغني صفة الحق
معزز بالعز والكبر وينبغي أن تسلم صفات الحق للخلق ولا ينازع إياها ولا ينظر
فيها فيبطل قول ابن عطاء بصحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الله
تعالى العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني أحدهما قصمته في النار ومن
خالفه أيضاً ورد فعلاً من لا يستحق الخاص والعام في فضل الفقر عليه أبو محمد
سهل بن عبد الله قال من أحب الغنى والبقاء والعز فقد نازع الله صفاته ومن
صفات الربوبية فجاب عليه أهلكته فلذلك كان الفقراء أفضل لأنه
وصف العبودية فمن جعل وصفه فقد تحقق بالعبودية وأوصاف العبودية
هي أخلاق الإيمان وهي التي أحبها الله من المؤمنين مثل الخوف والذل
والتواضع والفقر مضاف إليها وأوصاف الربوبية ابتلاء لقلوب أعدائه إلى

الجبارين

الجبارين والمتكبرين مثل العز والكبر والغنى والفقر معنى ضد هو البخل وكان الحسن يقول
ما رأيت الله تعالى جعل البخل إلا لبغيض خلقه إليه وهو إبليس ولذلك كان العلماء
يقولون لأن يغنى بالبخل في منع الدنيا فإن شرار الخلق أطولهم بقاءً وهم الشياطين
والغني الغالب إليه البخل ويقال إن الجنيد رحمه الله جاهل ابن عطاء في مسألة المسألة
ودعا عليه لأنه أنكر قوله أشد الإنكار وكان يقول الفقر الصابر أفضل والنساء أيا
في القيام بحكم حالهما لأن الغني الشاكر تمتع نفسه وتنعم صفته والفقير الصابر
تراه خرج على صفة الأحرار والمختار فقدره عليه بزلة ومن الجاهل ولذلك كان أحمد
بن حنبل يقول ما أعدل بالفقر شيئاً وكان يفضل حال الفقير بعظم شأن الفقير القائل
قال المروذي وذكر بعض الفقراء فجعل يترحم ويبكي السكوت عنه فقلت له يحتاج
إلى علم فقال وحيد استكثار على الفقر ومقاساته للضر خير من كثير من العلم ثم
قال هؤلاء خيرنا وأقول أن من فضل حال الغني على الفقير فإنه لم يذق مرارة
الفقر ولا حلاوته فهو غني يشعر به فأفتي لحلاوته لأنه لو ذاق مرارته من الضر
والهم لبغضه ولو أنه ذاق حلاوته منه أن هزوا إذاً لما فضل عليه

ذكر ماهية الدنيا وكيفية الزهد وتفاوت الزهاد في مقاماتهم

ثم إن الدنيا هي نصيب كل عبد من الهوى وما دنا من قلبه من الشهوات فمن زهد
في نصيبه وملكه من هواه المذموم فهذا هو الزهد المعنوي ومن زهد في نصيبه من
المباح وهو فضول الحاجات من كل شيء فهذا هو الزهد الفضل يرجع بصاحبه إلى الخطوة
جوار حبه النبي في أبواب الدنيا وطرقها إليه فأما الزهد في الحرام فإنه زهد المسلمين به
يحسن إسلامهم والزهد في الشبهات فهو زهد الورع تعبد به يكمل إيمانهم والزهد في الحلال
من فضول حاجات النفس زهد الزاهدين به يصلح يقينهم وروينا في حديث عن
ميمون عن الزبير بن العوام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا زبير أحمد الله
عشر فنون الشهوات والشبهات بالورع الحاجز عن المحارم وادخل الجنة بغير
حساب وكان سهل يقول في فضائل الزهد والحي جمع أنه لا يتم زهد عبد حتى
يزهد في هذه الثلاث في الدرهم الذي يجب أن ينفقه في أبواب البر فيقول يريد الدرهم
العدو وزهد في الثياب التي تستتر بعبوته في الطاعات وزهد في قوته التي يستعين
به على العبادة وإنما قال هذا لأنه عنده حقيق الزهد من أفضل المقامات كلها لأنه
كان يقول يعطى الزاهد جميع ثواب العلماء والعباد ثم يقسم على المؤمنين ثواب
أعماله وقال لا يبلغ الغنية أحد أفضل من ذي زهد عالم متورع وقال أفضل الأحوال

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)